

أضواء على بعض اهتمامات الأنثروبولوجيا ابتداء القرن التاسع عشر

Lights on some interests of anthropology at the beginning of the nineteenth century

زين العابدين الخباز*، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة ابن طفيل - المغرب
zinlabidine2015@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/02/05 تاريخ القبول: 2021/11/11 تاريخ النشر: 2021/12/10

ملخص:

عرفت الأنثروبولوجيا منذ نشأتها في المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى اليوم تحولات كبيرة على مستوى الموضوع والمنهج والنظريات، وهي تحولات نتجت من جهة أولى عن التأثير المستمر للأنثروبولوجيين بما يحدث حولهم من تطورات إبستمولوجية وتحولات تاريخية واجتماعية واقتصادية وسياسية، ونتجت من جهة ثانية عن تجاوز هؤلاء الأنثروبولوجيين لبعضهم البعض انطلاقا من عملية النقد التي ساهمت وتساهم في إبداع مقولات وأدوات ومواضيع أنثروبولوجية جديدة.

كما أنها تؤدي إلى إعادة تشكيل هوية هذا العلم باستمرار، وتجعله منفتحا على الحاضر والمستقبل أكثر من خضوعه للتراث الذي كان صالحا لزمانه، وكشف التطور العلمي عن سقوطه في مجموعة من "الأخطاء" المنهجية والنظرية والتحليلية والمعرفية. وبما أن الأنثروبولوجيا هي علم يعيد إنتاج ذاته باستمرار من خلال تجديد أساليبه واهتماماته ومقولاته التحليلية ونتائجه العلمية، فهذا يعني أن كل محاولة لتعريفه تقتضي بالضرورة الإلمام بمختلف التحولات التي عرفها منذ نشأته إلى اليوم، وخاصة تلك المتعلقة بمسألة الموضوع التي خصصنا لها هذا المقال المختصر جدا.

الكلمات المفتاحية: الأنثروبولوجيا، العلوم الإنسانية، الموضوع، المنهج، النظرية.

* المؤلف المرسل.

Abstract :

Anthropology has seen as the other Human Sciences disciplines a huge development in theories and methodology. Anthropology is not a science with a stable identity that it is expressed through absolute sayings, but rather a renewable science affected by both epistemological and historical developments, which remain undefined unless linking the historical background with the latest developments, especially the matter of the subject.

In this context, our article is briefly trying to shed light on Anthropology's interests from the 19th century up to now, by referring to the scientific and social reasons which contribute to the evolution of its interests; all of these, indeed, to come up with an answer to what is Anthropology?

Keywords: Anthropology, Human Science's, method, subject, theory.

مقدمة:

يهدف هذا المقال المختصر عن تاريخ الأنثروبولوجيا إلى رصد وتتبع أبرز اهتمامات هذا العلم منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى اليوم، والبحث عن العوامل التي كانت وما زالت تؤثر في اهتمامات الأنثروبولوجيين وطرق تفكيرهم، فضلا عن تحديد أهم التحولات التي عرفتها المناهج الأنثروبولوجية ونظرياتها حول الإنسان، وإبراز ما تبع ذلك من آثار على تشكيل تمثيلات الناس حول ذواتهم، وحول ما يتفاعلون معه من أغيار، وحيوانات، وطقوس، ومعتقدات، واقتصاد، وسياسة، وغيبيات. وإضافة لما تقدم، فنحن نريد من خلال هذا المقال تقديم بعض "الإشارات" التي تسمح لنا وللقارئ بمعرفة أبرز خصائص الأنثروبولوجيا مقارنة مع مجموعة من العلوم القريبة منها كالإثنوغرافيا والإثنولوجيا والسوسيولوجيا والدراسات الفولكلورية، ثم لإدراك التطورات والتحولات التي عرفتها اهتمامات الأنثروبولوجيين ومفاهيمهم ومناهجهم ونظرياتهم، فضلا عن إبراز علاقاتهم بالمؤسسات السياسية والاقتصادية، والكشف عن الكيفية التي تؤثر بها التغيرات والتحولات التاريخية والتطورات العلمية والفلسفية على العلوم الإنسانية عامة، وعلى الأنثروبولوجيا تحديدا.

أخيرا، لا بد من التأكيد في هذه المقدمة على أن هناك كتابات (مقالات، كتب، موسوعات) كثيرة للغاية حول مختلف القضايا المرتبطة بالأنثروبولوجيا، وكلها مفيدة للتعريف بهذا العلم وللتعرف على أدواته وموضوعاته ومختلف خصائصه الابستمولوجية. غير أن التراكم الكمي المنجز حول الموضوع الذي

نتحدث عنه الآن، لا يعني أن ما هو موجود ينطوي على كل أسرار الأنثروبولوجيا وحيثياتها، أو أنه كاف بما لا يدع أي حاجة لإعادة الحديث عن هذا العلم ورصد تحولاته وتطوراته. ففي المجتمعات العربية على الأقل ما زلنا نحتاج لكثير من العمل لترسيخ الممارسة الأنثروبولوجية الدقيقة والاعتماد عليها لفهم ما يحدث في هذه المجتمعات، وفي العالم بأسره. وفضلا عن هذا فالأنثروبولوجيا، وفق ما يؤكد تاريخها، هي علم يتجدد باستمرار، وتتغير معالمها كلما حدثت تغيرات كبيرة في التاريخ البشري أو في المجال الإبيستمولوجي، وبالتالي فمواكبة التطورات التي تحدث في المجال الأنثروبولوجي، تعتبر شرطاً لا غنى عنه للتعرف على هوية هذا العلم التي تتعرض لإعادة التشكيل كل حين، ثم لتطوير البحث الأنثروبولوجي في المسائل التي تخص الإنسان عامة، و"الإنسان العربي" تحديداً.

1 في تعريف الأنثروبولوجيا:

من المفيد جداً قبل الشروع في الحديث عن التحولات التي عرفتها اهتمامات الأنثروبولوجيا منذ نشأتها الفعلية في القرن التاسع عشر، أن ننطلق من التعريف بهذا العلم، وتمييزه عن العلوم القريبة منه التي تحدثنا عن بعض منها في مقدمة المقال.

من الناحية الإيتيمولوجيا لا يوجد اختلاف كبير على أن أصل كلمة أنثربولوجيا يعود إلى اللغة اليونانية القديمة، وأنها كانت تعني في هذه اللغة علم أو دراسة الإنسان، نسبة إلى كلمة أنثربوس (Anthropos) التي تعني الإنسان، وكلمة لوجوس (Logos) التي كانت تدل على العلم (شبعان، 2004، صفحة 03). وربما هذه الدلالة اللغوية لكلمة أنثربولوجيا المستمدة من اللغة اليونانية القديمة هي التي جعلت بعض العرب يترجمونها بعلم الإناسة، بينما هناك آخرون ظلوا يستعملون الكلمة كما وردت في مختلف اللغات اللاتينية، مدافعين على ذلك بحجة عدم وجود لفظ عربي يحمل كل أبعاد المتضمنة في المفهوم الأصلي.

وبناء على ما سبق، يتضح أن المجال الذي تهتم به الأنثروبولوجيا هو الإنسان، فهي لا تدرس طبقات الأرض كما تفعل الجيولوجيا، أو الكواكب كما تفعل الكسملوجيا، أو الخلايا العصبية كما تفعل بيولوجيا الأعصاب، وإنما تركز على الكائن الإنساني فقط. غير أن الاقتصار على تعريف الأنثروبولوجيا بأنها علم الإنسان، يجعلنا أمام تعريف غير مانع بالمقاييس المنطقية، ووجه عدم المنع فيه يتمثل في كونه يجعل - بوعي أو بغير وعي - كل العلوم التي تدرس الإنسان، بما في ذلك البيولوجيا، جزءاً من الأنثروبولوجيا، أو هي الأنثروبولوجيا نفسها. والأكثر من هذا فالتعريف السابق يجعل الجزء (الذي هو الأنثروبولوجيا) مرادفاً للكل (الذي هو العلوم الإنسانية).

وإذا علمنا أن العلوم التي تهتم بدراسة الإنسان لا تشمل العلوم الإنسانية فقط، وإنما تضم أيضاً بعض العلوم الطبيعية كالبيولوجيا والأركيولوجيا وحتى الفيزياء أحياناً، فهذا يفضي بنا إلى القول إن التعريف السابق للأنثروبولوجيا يجعل الجزء أكبر حتى من الكل. وكل هذا يتناقض مع مبادئ المنطق من جهة أولى، كما يتناقض من جهة ثانية مع حقيقة إبستمولوجية وهي أن كل العلوم تختلف عن بعضها في المواضيع التي تدرسها، وفي طريقة مقاربتها لهذه المواضيع. فحين نتحدث مثلاً عن علم الاجتماع مع إميل دور كايم نعرف أن هذا العلم يهتم بدراسة الظواهر الاجتماعية كأشياء (Durkheim, 1919)، ونعلم أيضاً أن علم النفس يدرس الحياة النفسية للإنسان (والحيوان) اعتماداً على مجموعة من الأدوات العلمية. كما نعرف أن الإثنوغرافيا تقوم بالدراسة الوصفية لمجموع التقاليد والعادات والقيم والأدوات والفنون والمأثورات الشعبية الخاصة بمجتمع معين خلال فترة زمنية محددة. ولكن ما الذي يجعل الأنثروبولوجيا – باعتبارها علماً – مختلفة عن غيرها من العلوم التي تدرس الإنسان، وخاصة عن العلوم الإنسانية؟

لنتفق بداية على أن التحديدات التي قدمت للأنثروبولوجيا هي كثير جداً، ولا يسعنا في هذا المقال عرض كل ما قيل حول الموضوع. غير أن أكثر الإجابات شيوعاً اليوم عن السؤال السابق هي أن الأنثروبولوجيا، لا تكتفي كما تقوم الإثنوغرافيا بوصف الحياة الاجتماعية والمادية والثقافية لجماعة من الجماعات البشرية، وإنما تقوم أيضاً بدراسات تحليلية ومقارنة للمادة الإثنوغرافية بهدف الوصول إلى تصورات نظرية أو تعميمات بصدد مختلف النظم الاجتماعية والإنسانية من حيث أصولها وتطورها وتنوعها. ومن جهة ثانية فالأنثروبولوجيا لا تكتفي بالنظر للإنسان من الزاوية النفسية كما يفعل علم النفس، أو من الزاوية الاجتماعية كما تفعل السوسيولوجيا، أو من الزاوية الاقتصادية كما يفعل علماء الاقتصاد، أو من الزاوية التاريخية كما يفعل علماء التاريخ، أو من الزاوية البيئية كما يفعل بعض علماء الجغرافيا، أو من الزاوية العضوية كما تفعل البيولوجيا، وإنما تدرسه بطريقة شمولية تدمج في إطارها كل المعطيات التي تسمح بتكوين فهم مترابط ومتكامل عن الإنسان وانتاجاته الثقافية والحضارية. حتى الأشياء التي قد تبدو بالنسبة لنا تافهة، ولا نعطيها أي قيمة في التحليل العلمي للوجود الإنساني، فالأنثروبولوجيا تعتمد عليها من أجل أن تُعرّف لنا الإنسان ضمن المجال الجغرافي والعمراني الثقافي والاجتماعي والاقتصادي الذي يعيش فيه، أو من أجل دراسة قضية إنسانية معينة.

ومن هنا نصل إلى أن ما يميز الأنثروبولوجيا ليس هو دراستها للإنسان، وإنما الطريقة التي تقارب بها المجتمع البشري، والظواهر الإنسانية، والأحداث التاريخية، والانتاجات الثقافية، والسلالات البشرية. ولا شك أن من يقرأ بحوث الأنثروبولوجيا سيجدها تختلف عن باقي الدراسات المنجزة حول الإنسان بالوصف الكثيف، والتحليل المتشعب، والمقارنات الكثيرة، والنظريات الشمولية.

2 نشأة الأنثروبولوجيا:

يتفق أغلب المؤرخين على أن ظهور العلوم الإنسانية ارتبط بالقرن التاسع عشر في المجتمعات الغربية، وخاصة في فرنسا وانجلترا وألمانيا وأمريكا. وعلى الرغم من الاختلافات التي وجدت بين هؤلاء المؤرخين حول الأسباب التي تحكم في نشأة العلوم الإنسانية، فهم اتفقوا من جهة أولى على أن نمو النزعة الوضعية وانبهار الفكر الغربي بنتائج البحث العلمي في الكشف عن أسرار الطبيعة، وما تبع ذلك من سيطرة الإنسان بشكل كبير هذه الطبيعة وتسخيرها لخدمة كثير من مصالحه، كان سببا رئيسا في الدعوة إلى الانتقال من الفلسفة الاجتماعية والدراسة الميتافيزيقية واللاهوتية للإنسان إلى إخضاعه للدراسة العلمية بمعناها الإمبريقي، وذلك لفهم ما يحدث في عالم البشر أولا، ثم للسيطرة على الأمراض النفسية، والأزمات الاقتصادية، والمشاكل السياسية، والتحكم في مسار التغير الاجتماعي، وجعل الإنسان أكثر تأثيرا في التاريخ. ومن جهة ثانية فالمؤرخين اتفقوا على أن الدعوة لدراسة الإنسان علميا زادت قوة بسبب الثورة الفرنسية والثورة الصناعية اللتين غيرتا أوضاع العالم الحديث، وأبرزتا مجموعة جديدة من المشاكل عقدت الوجود الإنساني في الغرب، وأضفت عليه ملمحا جديدا لم يشهد له مثيلا في التاريخ.

في هذا السياق الاستعماري والاقتصادي والسياسي والاجتماعي ظهرت الأنثروبولوجيا "كتخصص علمي" يقطع أولا مع الفلسفة الاجتماعية التي نشأ في حضنها لأول مرة، وهي الفلسفة التي نعثر فيها بحق على كثير من روح التفكير الأنثروبولوجي منذ اليونان مع هورودوت وأفلاطون وأرسطو، مروراً بالعرب مع البيروني، والمسعودي، وابن بطوطة، وابن خلدون، وصولاً إلى عصر الأنور مع مونتسكيو، وجون جاك روسو، وإيمانويل كانط... ويحاول ثانيا (أي تخصص الأنثروبولوجيا) استثمار ما توصلت إليه باقي العلوم (البيولوجيا، الجغرافيا، الطب، الإثنوغرافيا، الإثنولوجيا، التاريخ، الأركيولوجيا، اللغويات...) لفهم ودراسة الإنسان على النحو الذي حددناه سابقا.

3 اهتمامات الأنثروبولوجيا الكلاسيكية:

يُعتبر توماس بنيمان في كتابه "تاريخ الأنثروبولوجيا في مئة عام" أن التأسيس الفعلي للأنثروبولوجيا كعلم أكاديمي كان ما بين 1859 و1900 (Penniman, 1952)، لأن في هذه المرحلة الزمنية بالذات ظهر مجموعة من الباحثين الذين انتقلوا بالتفكير الأنثروبولوجي من مستواه العفوي والفلسفي، إلى المستوى العلمي الذي حددنا بعض خصائصه أثناء تعريفنا لمفهوم الأنثروبولوجيا، وسنوضح بعضا منها في قادم النقاش. ومن أهم هؤلاء الباحثين الذين تأسست الأنثروبولوجيا على أيديهم نذكر: أدولف باستيان الذي نشر كتابا تحت عنوان "الإنسان في التاريخ" سنة 1860، وهنري مين صاحب كتاب "القانون

القديم" (1861)، وفوسلين دي كولين مؤلف كتاب "المدينة القديمة" (1864)، وإدوارد تايلور صاحب الكتاب المشهور "الثقافة البدائية" (1871)، ولويس مورجان منتج كتاب "المجتمع القديم" (1877)، وإدوارد هادون أحد أعضاء بعثة التوريس وصاحب كتاب "أهل ميلانيزيا: دراسات في الأنثروبولوجيا والفولكلور" (1889)، وجيمس جورج فريزر صاحب الكتاب الموسوعي "الغصن الذهبي: دراسة في السحر والدين" الذي ظهر الجزء الأول منه سنة 1890.

هؤلاء إذا هم أبرز الباحثين الذين شكلوا المرحلة الأولى (الكلاسيكية) من تاريخ الأنثروبولوجيا بالمعنى الأكاديمي للكلمة، وحتى إن كان هناك أنثروبولوجيين آخرين ساهموا - بشكل أو آخر - في تأسيس الأنثروبولوجيا خلال القرن التاسع عشر، فهم لم يشتهروا كمن تحدثنا عنهم سابقا. وعموما فقد لاحظنا أن الدراسات الأنثروبولوجيا الكلاسيكية اتسمت بما يلي:

الملاحظة الأولى: دراسات الأنثروبولوجيين الأوائل (أدولف باستيان، هنري مين، فوسلين دي كولين، إدوارد تايلور، لويس مورجان، فريزر) لم تهتم بالمجتمع الحضري أو الصناعي كما كان يفعل السوسيولوجيين في تلك المرحلة التاريخية، بل اتجهت إلى دراسة ما سمي آنذاك بالمجتمعات الباردة، أو البدائية (Montagu, 1968)، أو غير المنطقية، أو الغرائبية الموجودة في أدغال إفريقيا، وأمريكا اللاتينية، وأستراليا، وآسيا، والهند. فباستيان مثلا اهتم بجزر الهند الغربية وأمريكا الجنوبية وبعض المناطق في أستراليا، ولويس مورجان درس قبائل الأيروكو الهندية، وإدوارد تايلور اشتغل على قبائل الهنود الأمريكيين عن شعب "البويبلو" بجنوب وغرب الولايات المتحدة الأمريكية، وإدوارد هادون درس أهل ميلانيزيا في مضائق التوريس...

وهنا من اللازم التأكيد على أن اهتمام الأنثروبولوجيين في المرحلة الكلاسيكية بدراسة المجتمعات غير الأوروبية فقط، لم يأتي صدفة، وإنما كان أولا نتيجة لاعتقاد منجزي تلك الدراسات أن "المجتمعات البدائية" هي التي تشكل الحالة الأصلية قبل ظهور نظام الحكومة المدنية، وبالتالي فهي التي تعتبر المفتاح الأنسب لفهم وتفسير ما آلت إليه "الحضارة". كما أنه جاء ثانيا نتيجة لمحاولة الأوروبيين فهم واقع "المجتمعات البدائية" لتسهيل عملية السيطرة عليها (ليكلرك، 1990، صفحة 12)، ولإخراجها - يقول ليفي برول - من وحشيتها وعدم عقلانيتها، إلى عالم المنطق والحضارة (Lévy-Bruhl, 1963).

الملاحظة الثانية: الدراسات الأنثروبولوجيا الكلاسيكية كانت تحاول، بشكل عام، الإجابة عن سؤال كيف نشأت حضارات العالم وكيف تطورت؟ (فهم، 1986، صفحة 142) أي أنها كانت تبحث عن قوانين التطور أو التغير الاجتماعي والثقافي من خلال البحث عن أصول النظام الاجتماعي، والطقوس، واللغة،

والمعتقدات، والقرباء... وبالتالي فالدراسات الأنثروبولوجية الكلاسيكية لم تكن تهتم بالظواهر نفسها، وإنما كانت تبحث عن أصول المجتمعات و"الممارسات الإنسانية"، وذلك لسببين إثنين:

- اعتقاد أصحاب تلك الدراسات أن كل منتجات البشرية تعود بالضرورة إلى أصول موحدة لا بد من معرفتها لفهم الحاضر.

- اعتقاد كثير من الباحثين الأنثروبولوجيين الأوائل أن التاريخ الإنساني يتطور مثل تاريخ الكائنات الحية بشكل تصاعدي تسلسلي، وذلك تبعاً لتأثيرات قانون الاصطفاء الثقافي.

الملاحظة الثالثة: الدراسات الأنثروبولوجية الكلاسيكية كانت من جهة أولى ذات طابع شمولي، وترتكز على التاريخ الثقافي كمفتاح لفهم الحاضر واستشراف المستقبل. ومن جهة ثانية كانت تلك الدراسات تركز على الوصف، والتحليل، والمقارنة بين الثقافات الإنسانية.

الملاحظة الرابعة: أغلب الأنثروبولوجيين في المرحلة الكلاسيكية، لم يتجهوا بأنفسهم إلى الميدان لجمع المعطيات ودراسة الشعوب، بل أسسوا دراساتهم على المادة الإثنوغرافية التي جمعها الرحالة والجغرافيين والمبشرين والحكام الإداريين... كما أن دراساتهم تلك كانت مؤسسة على الحدس والتأويل الظني أكثر مما على ما هو تجريبي (فهم، 1986، صفحة 139)، وهذا الأمر ينطبق أكثر على الدراسات الفرانكفونية التي تأثرت كثيراً بالمنهج العقلاني الديكارتي.

بناء على الملاحظات السالفة، يتبين أن الأنثروبولوجيا الكلاسيكية اهتمت بدراسة الإنسان من خلال التركيز على أصول السمات الثقافية والمجتمعات البشرية. وبشكل عام فالدراسات الأنثروبولوجيا الكلاسيكية، طورت نظريتين في قراءتها للتاريخ الثقافي هما:

- النظرية الأولى: تقول إن التاريخ الإنساني يتطور وفق خط تصاعدي تنتقل فيه المجتمعات من الأسفل إلى الأعلى بشكل تسلسلي وحتي، وهذا هو الاتجاه التطوري الذي مثله تاييلور ومورجان وباستيان بدرجة أقل، ولقد انتقده بشدة كلود ليفي ستراوس في كتابه العرق والتاريخ (2002، Lévi-Strauss).

- النظرية الثانية: تسمى بالانتشارية، وهي نظرية تتفق مع التطوريين في نقاط كثيرة (لفي-ستراوس، 1977، صفحة 19)، كقولهم إن كل الثقافات ترد في آخر المطاف لمنطقة ثقافية واحدة)، لكنها تختلف عنهم بالتأكيد على أن تطور الثقافات لم يكن يتم دائماً على نحو واحد، وهذا ما دافع عنه كل "من جون تيري وغرافتون إليوت سمث اللذين ادعيا أن التطور الثقافي حصل عملياً في مكان واحد هو مصر، وانتشر منها إلى جميع أنحاء العالم، وأوضحا أن علم المعادن والزراعة والعمارة والمجتمع المعقد والممارسات

الدينية والمكتسبات الثقافية لدى لدى حضارات المايا والأزتكت والأنكا، مثلا، هي ابتكارات مستعارة من مركز الأشياء كلها – مصر" (بيلتو، 2010، صفحة 42).

4 التطورات العلمية والفلسفية في القرن 20 وتأثيرها على اهتمامات الأنثروبولوجيين:

من بين ما تميزت به الساحة الفكرية في القرن التاسع عشر هو سيطرة النظرية التطورية لتشارلز داروين على ذهنية الباحثين في كل المجالات المعرفية تقريبا، وخاصة على الباحثين الذين اعتقدوا أن العالم الإنساني لا يختلف عن العالم الطبيعي إلا في الدرجة، وأنه أيضا يخضع لنفس قوانين التطور البيولوجي، ولا سبيل لفهمه إلا بالاعتماد على آليات ومفاهيم النظرية التطورية.

لكن مع حلول القرن العشرين تعرضت النظرية السابقة لانتقادات شديدة من باحثين كثر في العلوم الإنسانية والطبيعية والفلسفة أيضا، ولم تعد هذه النظرية تسيطر كما كانت سابقا على ذهنية المفكرين والعلماء والأدباء، بل ظهرت نظريات جديدة (في الفيزياء والبيولوجيا وعلوم اللغة وعلم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة والحفريات وعلم الاقتصاد)، كان لها وقع كبير على نظرة الأنثروبولوجيين للإنسان، وعلى توجهاتهم العلمية أيضا. وهذا التأثير لم يظهر فقط في استلهاهم الأنثروبولوجيين لمجموعة من النظريات (كالنظرية البنوية من علوم اللغة، والنظرية الوظيفية من علم الاجتماع، والانتشارية من الجغرافية، والماركسية والهرمينوطيقا من الفلسفة...) والعمل على اختبارها (كما فعل بواس، ومالينوفسكي، وراد كليف بروان⁺، ومارسيل موس، وإيفانز بريتشارد، وكلود ليفي ستراوس، وكلود ميلاسكوس...) في دراسة مجموعة من القضايا من قبيل العرق، والقراية، والتدين، والمقاومة، والبداءة، والتفاعل الاجتماعي، والتغير الاجتماعي، والنظام الاجتماعي، والسلطة السياسية...، وإنما ظهر أيضا في تغير الخطاب الأنثروبولوجي "السلي" حول "المجتمعات البدائية"، والتحرر من التمرکز حول الذات، وأدى كذلك إلى نشأت تخصصات أنثروبولوجيا دقيقة جدا مع بداية ستينيات القرن الماضي، مثل

⁺ تعتبر دراسات كل من مالينوفسكي (1884 - 1942) حول جزر التروبرياندي في شرق غينيا الجديدة التي حاولت أن تعجب عن سؤال كيف تعمل العادات والتقاليد والنظم الاجتماعية لتفي بالاحتياجات الجسمية والنفسية للأفراد؟ ودراسات راد كليف بروان (1881 - 1955) حول جزر الاندمان التي انصبحت على مسألة تماسك النظام الاجتماعي، هي الدراسات الأولى التي أخرجت الأنثروبولوجيا من إعادة تركيب التاريخ الذي يقوم على الحدس والتأويل الظني، وأدخلتها في إطار الوصف والتحليل للحاضر والواقع الذي يستند على الملاحظة والمقارنة. وبذلك تكون هذه الدراسات أسست لمنهج الدراسة العقلية، بمعنى أن الأبحاث الأنثروبولوجيا لم تعد تركز على التخمينات والتأويلات الظنية، بل أصبحت تبني انطلاقا من جزيئات الميدان. وثانيا لم يعد الأنثروبولوجي يذهب لدراسة جماعة معينة، فيتكلف بدراسة أرضها وديانها وعدد السكان وأنواع الوحدات والمعتقدات، ولكنه يختار قضية في مجتمع محلي (مثل السلطة والدولة في المجتمع، أو العنف في المجتمع، أو الحركات الاجتماعية، أو ممارسات ثقافية واقتصادية معينة في المجتمع) ثم يركز على دراستها من كل الجوانب المرتبطة بها.

الأنثروبولوجيا التأويلية/ الرمزية التي تأسست على يد كليفورد غيرتز، وساهم في تطويرها مجموعة من الأنثروبولوجيين الآخرين كديل أكلمان، ولورنس روزن، وهلدنر غيرتز، وبول رابينو وغيرهم.

هذا الاتجاه الأنثروبولوجي الجديد (أي الاتجاه الرمزي/التأويلي) الذي استفاد كثيرا من التأويلات اللسانية، ومن التراث السوسيولوجي لماكس فيبر، ومن نسبة أنشطين في الفيزياء، لم يعد محصورا في الأطر المنهجية وفي المقاولات الوضعية التي اعتمدتها الأنثروبولوجيا الكلاسيكية متأثرة بالعلوم الدقيقة، وبالفلسفة الوضعية، وخاصة بالنظرية التطورية لتشارلز داروين، وإنما قام بنقد جذري لتلك الأطر "الضيقة" والمقولات المتمركزة حول الذات، وحدد موضوع الأنثروبولوجيا في دراسة وتحليل الأنساق الرمزية والثقافية، وجعل من أنساق الدلالة والرموز التي يستعملها الأفراد داخل الحياة الاجتماعية مدخلا ومنطلقا لفهم الحياة المجتمعية وما يطرأ عليها من تغيرات.

كما أنه أولى للثقافة الدينية أهمية كبيرة لفهم تشكل تاريخ الشعوب وواقعها الاجتماعي. وإذا كان الاتجاه التأويلي/ الرمزي ركز على دراسة تأويل الرموز، الشيء الذي لم يُهتم به كثيرا في السابق، فهذا لم يأتي من باب الترف والمزايدة على التراث الأنثروبولوجي، بل كان سببه هو اعتقاد مؤسس هذا الاتجاه الأنثروبولوجي (كليفورد غيرتز) أن الإنسان كائن عالق في شبكات رمزية نسجها حول نفسه بنفسه.

وبالتالي فهمة الأنثروبولوجيا هي وينبغي أن تكون النظر إلى الثقافة باعتبارها شبكة من الرموز، والعمل على تحليلها بحثا عن المعنى وليس عن القانون كما يفعل الإمبريقيون (غيرتز، 2009، ص 82). وهكذا فالإتجاه التأويلي/ الرمزي دشّن مرحلة ما بعد الحداثة في الأنثروبولوجيا، وذلك بعد عمله على تجديد موضوع ومنهج هذه الأخيرة كما بينا ذلك قبل قليل، وتأكيد على النسبية الثقافية، ورفضه للتعميمات المتسارعة، ونبذ للتمركز حول الذات، فضلا عن إعادته النظر في مفهومي الثقافة والموضوعية داخل الأنثروبولوجيا، وقطعه مع النظرة الاستطاتيكية والنمطية للمجتمعات غير الأوروبية، وإعطائه الفرد المكانة التي يستحقها في فهم الثقافة والمجتمع بعد أن أهملته الأنثروبولوجيا الكلاسيكية بشكل كبير جدا ونظرت إليه كمجرد دمية في يد البنيات.

5 الحربين العالميتين الأولى والثانية ودورهما في تحول اهتمامات الأنثروبولوجيا:

غالبا ما يتم حصر نتائج الحربين العالميتين الأولى والثانية في مجموعة من المعطيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية، كالدمار الهائل في البنية التحتية، وقتل الملايين من البشر، وانتقال قيادة المجتمع الكوني إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وتقسيم العالم إلى مجموعتين هما دول الحلفاء ودول المحور. لكن في الحقيقة، إن آثار الحربين السابقتين (بالإضافة إلى أزمة 1929) لم تؤدي إلى النتائج

المذكور أنفاً فحسب، وإنما كشفت أيضاً عن زيف كثير من "الادعاءات الرومانسية" التي استحوذت على ذهنية المجتمع الأوروبي منذ القرن الثامن عشر (هايلاند، 2013، صفحة 85). فمع هاتين الحربين المدمرتين للإنسان والطبيعة على سواء، اكتشف العقل الغربي أن التاريخ لا يسير في اتجاه الريح فقط؛ أي في اتجاه الخلاص من الشرور الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والطبيعية كما اعتقد ذلك كانط وهيجل وأصحاب النظرية التطورية بشكل عام. وإنما يتحرك أيضاً نحو السيطرة على الإنسان وتدمير الطبيعة، وبالتالي فتقدم التاريخ يتضمن بتعبير كلود ليفي ستراوس والريح والخسارة في ذات الآن (لوفي-ستراوس، العرق والتاريخ، 1982، صفحة 28).

هذه الصدمة التي وقعت للإنسان الأوروبي بسبب الحربين العالميتين الأولى والثانية، لم تدفعه فقط إلى الشك في كثير من معتقداته السابقة من قبيل أنه هو الحامل للأنموذج المثالي للحضارة، وأن ما عداه همجي وبدائي ولا منطقي، ولن يتقدم إلا إذا اقتدى بالغرب، بل جعلته متشائماً وثائراً على ما عُرف بنظرية الحداثة (هنا سوف يظهر مفهوم ما بعد الحداثة)، ودفعته أيضاً إلى ممارسة نقد جذري على ذاته ومقولاته الفلسفية المثالية، كما جعلته يعي جيداً أن المجتمع يتحرك بقوانين أخرى غير تلك القوانين التي عبر عنها التطوريون فيما قبل. وأخيراً فأوضاع الحرب العالميتين الأولى والثانية، إلى جانب نمو النزعة العنصرية في أوروبا (الفاشية الإيطالية، والنازية الألمانية)، دفعت كثير من الأنثروبولوجيين إلى توجيه انتقادات قوية للنظريتين التطورية والانتشارية، وشكلت سبباً في إثارة الأنثروبولوجين للاهتمام بقضايا جديدة من قبيل قضايا العدوان البشري، وقضايا العنصرية، وقضايا الاستقرار الدولي... وجعلت الدراسات الأنثروبولوجية تنتقل من الاهتمام بالمجتمعات الغرائبية فقط إلى دراسة المجتمعات الغربية نفسها لفهم ما يجري فيها من أحداث (الحروب المدمرة، نمو النزعة العنصرية، الأزمة الاقتصادية...).

6 الاستعمار والاهتمامات الجديدة للأنثروبولوجيا:

من المعتقدات التي كانت سائدة عند كثير من الأوروبيين عن "المجتمعات البدائية"، أن هذه المجتمعات باردة وغير منطقية بتعبير ليفي برون، كما أنها سهلة الاختراق والاستعمار نظراً "لجهلها" بقواعد النضال ولضعف إمكانياتها الحربية. وبناء على هذين الاعتقادين (الفاستدين بطبيعة الحال) ظن الأوروبيون أنهم سيجعلون البلدان المستعمرة ملحقة ثانية لأوطانهم (هذا ما حاولت فرنسا فعله مع الجزائر)، وأنها ستتمكن من السيطرة على هذه البلدان بسهولة جداً كما تتم السيطرة على الحيوانات. لكن حدث الاستعمار العسكري الذي قاده فرنسا وبريطانيا وألمانيا وإسبانيا والبرتغال وإيطاليا، كشف عن زيف هذه الاعتقادات بشكل صدم القوى الاستعمارية (هاجين، 1979، صفحة 138). "فالمجتمعات البدائية" سواء في إفريقيا أو في آسيا أو في أمريكا اللاتينية، لم ترحب بالمستعمر أو تركت له المجال كي

يفعل ما يشاء في ثرواتها، وإنما قاومته – وفق ما توضحه كتب التاريخ - بالسياسة والسلاح إلى أن "تحررت" من سيطرته العسكرية ابتداء من أربعينيات القرن الماضي، وظلت متشبثة بكثير من قيمها وطقوسها ومؤسساتها الاجتماعية على الرغم من كل المحاولات الاستعمارية للاحاق هذه القيم والمؤسسات بالنموذج الغربي لتسهيل عملية السيطرة والاستغلال على أصحابها.

هذه المقاومة العسكرية والثقافية التي واجهت بها "المجتمعات النائية" الاستعمار الأوروبي، دفعت الأنثروبولوجيين إلى تغيير مسار تفكيرهم من البحث عن الأصول، إلى طرح الأسئلة التالية: إذا كانت المجتمعات التقليدية مجتمعات باردة بالفعل، فلماذا وقعت المقاومة؟ وإذا كانت هذه المجتمعات فوضوية بالفعل وغير منطقية كما قال ليفي برول في كتابه العقلية البدائية، فكيف اجتمع الناس كي يقاوموا الاستعمار؟ ما الذي جعل الناس يلتفون مثلاً حول عبد الكريم الخطابي، أو ماء العينين، أو عبد القادر الجزائري، أو مهاتما غاندي، أو فيدل كاسترو، ويواجهون المستعمر؟ كيف أمكن للقبائل في الأرياف والصحاري التي كانت في حرب دائمة على حد تعبير روبرت مونتان، أن تتحد فيما بينها وتواجه الغرب؟ ما الذي جعل الناس يتشبثون بثقافتهم على الرغم من أنها لم "تتقدم" إلى ما تقدمت إليه الثقافة الأوروبية؟ ولماذا لم يستطع المستعمر رغم قوته العسكرية أن يجعل المجتمعات المستعمرة ملحقة ثانية له؟ ثم إلى أي حد تمكن المستعمر من تغيير الثقافة الأصلية للمجتمعات التقليدية؟ وكيف يمكن تحقيق "التنمية" الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية والتقنية لهذه المجتمعات؟

بناء على ما تقدم، فالأنثروبولوجيا التي أعقبت الحرب العالمية الثانية ومرحلة تصفية الاستعمار، لم تعد تركز أبحاثها على المجتمعات المعزولة أو الهامشية بحثاً عن أصول النظام الاجتماعي، وأصول اللغة، وأصول الروابط الاجتماعية، وأصول الأنساب والأعراق، وأصول الطقوس... بل تحولت إلى الاهتمام بالجانب الاجتماعي القروي في المجتمعات المتحولة (فهم، 1986، صفحة 192)، أي تلك التي صدمتها "الحداثة الأوروبية" بفعل واقعة الاستعمار، والاحتكاك الثقافي. ولأجل الإجابة عن الأسئلة التي طرحها الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي لهذه المرحلة، أي مرحلة الاستعمار، شرع الأنثروبولوجيون آنذاك في اختبار مجموعة من النظريات (كالبنوية، والتطورية، والماركسية، والوظيفية، والوظيفية البنائية، والانقسامية...) لعلها تسعفهم في فهم وتفسير ما حدث، وخاصة في دراسة مجموعة من القضايا كالمقاومة، وعوامل التغير الاجتماعي، والبدادة، والتثاقف، والنظام الاجتماعي، والعلاقة بين المحلي والعام، والمحافظة والمعاصرة، والثابت والمتحول، ودور الدين في الحياة العامة...

من هنا فالأنثروبولوجيا ابتداء من خمسينات القرن الماضي، وبدافع من القوى السياسية والاقتصادية الكبرى في الغرب (الوقيدي، 2011، صفحة 277)، لم تعد تبحث عن أصول المجتمعات والقضايا كما كان قبلا، بل أصبحت تهتم بالقضايا ذاتها (أوجيه، 2008، ص 24)، كقضايا التدين، والسلطة، والاجتماع، والشباب، والجندر، والتضامن الاجتماعي، والفن، والتغير الموجه، والتنمية، والسياسة، وتأثيرات التكنولوجيا... وثانيا لم تعد هذه الأنثروبولوجيا تدرس الجماعات المعزولة و"غير المتدنية" كما كانت تفعل قبلا، بل أصبحت تهتم بالمجتمع القروي سواء في آسيا أو في أمريكا اللاتينية أو في إفريقيا أو في البحر الهادي، وخاصة في الشرق الأوسط الذي حظي باهتمام كبير من قبل الأنثروبولوجيين في هذه المرحلة، ومن أشهر الدراسات الأنثروبولوجية التي تؤكد كلامنا السابق نذكر: دراسات إيفانز بريتشارد حول النوير في جنوب السودان، والانيوك، والدينكا، والشيبا، والإيجا...، ودراسات بورديو حول القبائل التي كانت تسعى تاريخيا "بزواوة" وهي قبائل توجد ناحية "بجاية" في الجزائر، وأبحاث جورج بالانديه حول برازافيل عاصمة الكونغو، ودراسات جاك بريك حول حد كورت وسكساوة بالمغرب، ودراسات إرنست غلنز حول صلحاء الأطلس المغربي، ودراسات ديل إيكلمان حول الزاوية الشرقاوية (توجد في المغرب)، ودراسات مارجريت ميد حول التغير الثقافي عند الهنود الحمر، وكتاب جورج فوستر الثقافات التقليدية والتغير التكنولوجي....

7 من دراسة المجتمع القروي إلى دراسة المجتمع الحضري:

لقد قلنا سلفا، إن الأنثروبولوجيا اختصت في بداياتها الأولى بدراسة ثقافات الجماعات الهامشية والمعزولة في أذغال إفريقيا وآسيا وأمريكا وأستراليا، في مقابل السوسولوجيا التي كانت تهتم بالمجتمع الحضري الصناعي، ثم قلنا بعد هذا أن الأنثروبولوجيا تحولت أثناء مرحلة تصفية الاستعمار من دراسة الجماعات الهامشية البدائية، إلى دراسة المجتمعات القروية في مختلف بلدان العالم وفي أوروبا نفسها... والأن نقول مع مجيد حميد عارف أن الأنثروبولوجيا ابتداء من ستينيات القرن الماضي، ومع حدوث مجموعة من التطورات السياسية والاقتصادية بالبلدان "النامية" والمتقدمة على سواء (مثل الانفجار الديموغرافي، الهجرة من الأرياف والبوادي إلى المدن، رغبة الدولة المركزية في توطيئ الرحل، ازدياد درجة العمران الحضري، ظهور مجموعة من المشاكل البيئية الناتجة بالأساس عن ارتفاع وتيرة التصنيع، ازدياد حجم الحركات الاحتجاجية...) لم تعد تهتم بقضايا المجتمع القروي فقط، بل انتقلت إلى دراسة المجتمع الحضري أيضا تحت اسم ما يعرف بالأنثروبولوجيا الحضرية (عارف، 1989). ومن أبرز الأبحاث التي أنجزت حول هذا الموضوع خلال ستينيات القرن الماضي نذكر: دراسات معهد رودس ليفنغستون التي ركزت على التحضر في جنوب إفريقيا (هايلاند، 2013، صفحة 130)، ودراسات بيتر وورلسي حول طوائف الشحن في ماليزيا التي نشرها في كتاب تحت عنوان "سيصدق البوق"، وكتابي ابنير كوهين "العادات

والسياسة في أفريقيا المتحضرة"، و"العرقية الحضرية"، ودراسات فليب ماير عن السياسة الحضرية بجنوب أفريقيا، وكتاب ديفيد باركن "الجيران والمواطنون في جناح مدينة غربية"... وبالنظر إلى هذه الدراسات مجتمعة وغيرها كثير، نجد أن أول ما اهتمت به الأنثروبولوجيا الحضرية هي حياة القرويين المهاجرين إلى المدينة (فهم، 1986، صفحة 237-238)، والمشاكل الاقتصادية والثقافية والبيئية والعمرانية التي نتجت عن هذه الهجرة. لكن اهتمامات الأنثروبولوجيا الحضرية، لم تبقى محصورة في معالجة هذه القضايا فقط، بل درست أيضا طقوس عيش أهل الحضر وعاداتهم وأخلاقهم وتديهم وتفاعلهم مع الوافدين من القرى والبادي، كما درست مسائل التنمية الحضرية وما ارتبط بها من أسئلة ثقافية وبيئية واقتصادية وعمرانية وسياسية...

8 أوضاع الحرب الباردة وتأثيرها على الأنثروبولوجيا:

مباشرة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية سنة 1945، والتي أفرزت هيكلية جديدة للموازن بين القوى الدولية، عرف العالم حربا باردة بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي لم تنته - وإن شكليا - إلا مع هدم جدار برلين سنة 1989، لكن تأثيراتها الاقتصادية والسياسية والثقافية والعلمية كانت كبيرة جدا، خاصة وأن كل المعسكر كان يهدف إلى السيطرة على أكبر قدر ممكن من الدول، وإثبات قدرته على تقديم ما هو "أفضل" للإنسان في مختلف المجالات المرتبطة بوجوده. ولهذا فالعرب الباردة اعتمدت على استراتيجيتين أساسيتين تحددهما كالاتي:

- الاستراتيجية الأولى: تمثلت في عمل كل من المعسكر الاشتراكي والمعسكر الرأسمالي على محاولة استقطاب دول العالم الثالث لصالحه (أفغانستان، إيران، كوبا، كوريا، الفيتنام، إفريقيا الجنوبية...) عن طريق مساعدتها عسكريا واقتصاديا واجتماعيا، ووعدها بالحدثة، مقابل توعد المعارضين بالموت (وستاند، 2014، صفحة 717).

- الاستراتيجية الثانية: تمثلت في السباق بين أمريكا والاتحاد السوفياتي نحو الاكتشافات العلمية والتكنولوجيا والطبية والزراعية، بالإضافة إلى السباق نحو التسلح والتصنيع وبناء تحالفات عسكرية واقتصادية كبرى لمواجهة المعارضين.

هذه الأوضاع التي نتجت عن الحرب الباردة، والتي كانت حربا أيديولوجية واقتصادية بالدرجة الأولى، جعلت عددا كبيرا من الأنثروبولوجيين يتجه إلى الاهتمام بالمسألة الاقتصادية في مجتمعات الجنوب. نعم، نعلم أن هناك كثير من الأنثروبولوجيين اهتموا بقضايا الاقتصاد قبل خمسينات القرن الماضي، من قبيل بواس ومالينوفسكي وبراون ومارسيل موس الذين درسوا الأسواق والتجارة والنقود أثناء

الأبحاث التي قاموا بإنجازها، غير أن العصر الذهبي للأنثروبولوجيا الاقتصادية لم يكن إلا بعد الحرب العالمية الثانية مع كارل بولاني، وبول بوهانون، وجورج دالتون، ومن أتى بعدهم. فما الذي اهتم به هذا الفرع الجديد من الأنثروبولوجيا؟

لكي نجيب عن هذا السؤال ينبغي أن نميز بين مرحلتين من تاريخ الأنثروبولوجيا الاقتصادية، المرحلة الأولى تبدأ من محطة التأسيس الفعلي لهذا التخصص إلى حدود ثمانينيات القرن العشرين، أما المرحلة الثانية فتبدأ من 1980 إلى اليوم. بالنسبة للمرحلة الأولى، ركز فيها الأنثروبولوجيون من قبيل كارل بولاني وبول بوهانون وجورج دالتون على تحليل اقتصاديات المجتمعات "البداية"، إذ اتجهوا إلى دراسة السلوكات الاستهلاكية، وطرق الكسب (عبد-الرحمان، 1992، صفحة 18)، وطرق التبادل التجاري، وأدوات الإنتاج، وعلاقات الإنتاج، وأنواع الطعام، وطبيعة الأسواق السائدة في "المجتمعات البدائية"، وثقافة الشغل والادخار عند هذه المجتمعات. لكن مع حلول ثمانينيات القرن العشرين - وهذه هي المرحلة الثانية من تطور الأنثروبولوجيا الاقتصادية - لم يعد الأنثروبولوجيون يركزون على المجتمعات القروية فقط، بل تم التحول لأول مرة إلى دراسة الرأسمالية الغربية دراسة مونوغرافية (هاين، 2014، صفحة 113). وبشكل عام فالأنثروبولوجيا الاقتصادية تهتم اليوم بدراسة كل من أنماط الإنتاج، وعلاقات الإنتاج، وقوى الإنتاج، وأدوات الإنتاج، وعمليات المحاصصة أو التوزيع، والاستهلاك، والتبادل التجاري، والإشهار، والأذواق، والحركة الاقتصادية، وحوافز ومعوقات الإنتاج، والتنمية الاقتصادية، وثقافة الشغل، كما تقوم بالمقارنة بين الاقتصاد "البدائي" والاقتصاد الحديث والاقتصادات المركبة، وأخيرا تعالج علاقة الاقتصاد المحلي بالمجتمع الشامل، وأيضا علاقة الاقتصاد بكل من السياسية والدين والجاه والسحر والأسطورة...

9 العولمة والدرس الأنثروبولوجي الجديد:

لم يكن هدم جدار برلين سنة 1989 مجرد حدث أعلن من خلاله بشكل مباشر عن انتصار حلفاء الرأسمالية على الاتحاد السوفياتي في صراع أيديولوجي وسياسي واقتصادي دام لمدة 45 سنة تقريبا، بل شكل أيضا - وهذا ما يهمنا في هذا الباب - إعلانا عن عولمة الثقافة الرأسمالية التي تنبني على قيم الاستهلاك، والفردانية، والمبادرة الحرة، والملكية الخاصة، والاحتكار، والمنفعة الذاتية، والحرية الاقتصادية، والأولوية للنقود... هذا التحول التاريخي الذي عرفه العالم ابتداء من تسعينيات القرن الماضي، لم يفتح المجال فقط لأصحاب الرساميل للسيطرة على الأسواق العالمية وتوجيه أذهان الناس نحو التشبع بالقيم السياسية والاقتصادية والثقافية للنظام الرأسمالي المشار إليها أعلاه، وإنما جعل

الهويات الثقافية للشعوب الأخرى، وخاصة الهويات الثقافية لمجتمعات "العالم الثالث"، في موضع "مقلق ومخرج".

ونظرا لهذه التغيرات الجديدة التي عرفت نهاية القرن العشرين، نشأ تخصص أنثروبولوجي جديد (إسمه أنثروبولوجيا العولمة) لم يعد يهتم فقط بدراسة علاقة المجتمع المحلي بالمجتمع الشامل، أو علاقة قبيلة معينة بالسلطة المركزية داخل نفس المجتمع، بل تحول اهتمامه — وهذا هو الجديد في الأمر — إلى دراسة العلاقة بين ما هو محلي وكوني (عالمي)، أي أن الدراسات الأنثروبولوجيا بحلول التسعينيات لم تعد محصورة في محاولة فهم الدينامية الداخلية للمجتمعات المحلية اعتمادا على ما هو محلي وإقليمي فحسب، وإنما شرعت في الاهتمام بقضايا جديدة من قبيل دراسة تأثير العولمة على "الدولة الوطنية" وعلى الهوية الثقافية للمجتمعات المحلية، وتحليل وسائل الممانعة التي اعتمدتها المجتمعات المحلية في مواجهة ثقافة الرأسمالية، ومناقشة طبيعة التفكير البشري في عصر العولمة، إلى جانب البحث عن مصير القيم الثقافية للمجتمعات في ظل هذه المنظومة العابرة للقارات، والاهتمام بموضوع الهجرة الدولية... وعليه فالأنثروبولوجيا لا تنظر للعولمة بأنها مجرد عامل اقتصادي عابر للحدود، بل هي بالدرجة الأولى عامل ثقافي واجتماعي مؤثر بدرجة كبيرة في الوجود البشري المعاصر، وهذا بالذات ما تؤكد لنا دراسات بيار بورديو، وهانيرز، وساهلينس، ومارك إيبليس، ومارك أوجي، وجيرار ليكلرك صاحب كتاب العولمة الثقافية، وغيرهم ممن اهتموا بدراسة ظاهرة العولمة أنثروبولوجيا.

10 أنثروبولوجيا اليوم:

إن ما نقصده بأنثروبولوجيا اليوم هو أنثروبولوجيا القرن الواحد والعشرين التي لم تعد تهتم فقط بالقضايا القديمة مثل القبيلة، وأصل العشائر، والثقافة الدينية، والسلطة السياسية، وتأثير العولمة على ما المحلي، والصراع بين الثقافات، وعلاقة الثقافة بال شخصية... بل اتجهت صوب دراسة قضايا جديدة فرضتها أبرز أحداث القرن الواحد والعشرين والتي تمثلت في: الأزمة الاقتصادية العالمية لسنة 2008، وعودة الأصوليات الدينية والسياسية إلى المشهد الاجتماعي، وتطور الذكاء الاصطناعي بشكل لافت للنظر، وسيطرة العالم الافتراضي على العالم الواقعي في كثير من المجتمعات، وغزو الفضاء، فضلا عن تغير الأذواق، وصراع الأجيال، وبروز المثلية بقوة، وتأجج الحركات الاحتجاجية في الشرق الأوسط تحديدا، وانتشار وباء كوفيد 2019.

هذه الأحداث التي عرفها القرن الواحد والعشرين، أو على الأقل تطورت أكثر في هذا القرن، فرضت من جهة أولى على الأنثروبولوجيين كما قلنا سابقا إنجاز مجموعة من الأبحاث حولها لوصف وفهم ماذا يجري اليوم، ومن جهة ثانية فسيطرت العالم الرقمي على كثير من المجالات في حياتنا المعاصرة، أدى

الى تخصص مجموعة كبيرة من الباحثين في الأنثروبولوجيا الرقمية (هناك من يسميها بالأنثروبولوجيا الافتراضية) التي تهتم بدراسة علاقة الإنسان بالتقنية في العصر الرقمي، فضلا عن دراسة الثقافة في العالم الافتراضي، والذكاء الاصطناعي، ووسائل الإعلام الرقمية.

خاتمة:

بعد هذا التتبع المقتضب لاهتمامات الأنثروبولوجيا منذ المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى اللحظة الراهنة من القرن الواحد والعشرين، ونحن لا ندعي أن بحثنا كان جامعا مانعا، نصل إلى النتائج الآتية:

- الأنثروبولوجيا تهتم بدراسة كل ما أضافه الإنسان إلى الطبيعة من عادات وتقاليد وطقوس وفنون ورموز ولغات ومؤسسات ونظم وعلاقات اجتماعية وبنائات عمرانية، كما أنها تدرس الأعراق والسلالات وتاريخ السلاطين والمعتقدات الشعبية والذاكرة الجماعية والرواسب الثقافية، دراسة وصفية، تحليلية، ومقارنة تعتمد فيها على مجموعة من الأدوات البحثية العلمية.

- عرفت اهتمامات الأنثروبولوجيا ابتداء من القرن التاسع عشر تطورات كبيرة تسببت فيها التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والابستمولوجيا التي عرفتها كل حقبة تاريخية على حدة. وفي هذا الصدد يقول حسن فهميم " كما تسعى الأنثروبولوجيا إلى فهم الإنسان وثقافة العصر الذي يتواجد فيه، فإن كل عصر قد حدد لها الطريقة التي تفهمه بها". (فهميم، 1986، صفحة 213).

- التطورات التي عرفها العالم خلال القرن العشرين، أدت ابتداء من خمسينيات القرن الماضي، إلى نشأة التخصص داخل الأنثروبولوجيا العامة، ومن بين هذه التخصصات نذكر: أنثربولوجيا الذوق، أنثربولوجيا الطعام، أنثربولوجيا السياسة، أنثربولوجيا الجنس، أنثربولوجيا التربية، أنثربولوجيا الصحة، أنثربولوجيا الدين، أنثربولوجيا التنمية، أنثربولوجيا الاقتصاد، أنثربولوجيا الجسد، أنثربولوجيا اللغة، أنثربولوجيا البيئية... (هناك من يقسم الأنثروبولوجيا بشكل عام إلى ثلاثة فروع هي: الأنثروبولوجيا الثقافية (تدرس كل ما هو رمزي)، الأنثروبولوجيا الاجتماعية (تدرس البناء الاجتماعي)، الأنثروبولوجيا الفيزيائية (تدرس كل ما هو مادي من قبيل البنائات، الأجساد، البيئة، المستحاثات...)).

- من أشهر النظريات الأنثروبولوجيا نذكر: النظرية التطورية، النظرية الانتشارية، النظرية الوظيفية، النظرية الوظيفية البنائية (تليوين، 2011، صفحة 75)، لكن هذه النظريات تعرضت لانتقادات شديدة من قبل اتجاهات ما بعد الحداثة في الأنثروبولوجيا.

- على الرغم من أن الأنثروبولوجيا علم واحد، فإن اتجاهاتها تختلف بين أربع مدراس ألا وهي المدرسة البريطانية والمدرسة الأمريكية والمدرسة الفرنسية والمدرسة الألمانية (Barth, 2005).

قائمة المراجع والمصادر:

- أفريت هاجين. (1979). حول نظرية التغير الاجتماعي. (عبد الغني سعيد، المترجمون) مصر: مكتبة الانجلو مصرية.
- أود ارن وستاد. (2014). الحرب الباردة الكونية. (مى مقلد، المترجمون) القاهرة: المركز القومي للترجمة.
- إيركسون توماس هايلاند. (2013). تاريخ النظرية الأنثروبولوجيا. (لاهاي عبد الحسين، المترجمون) الجزائر: منشورات الاختلاف.
- بريتي بيلتو. (2010). دراسة الأنثروبولوجيا: المفهوم والتاريخ. (كاظم سعد الدين، المترجمون) بغداد: بيت الحكمة.
- جيرار ليكلرك. (1990). الأنثروبولوجيا والاستعمار. (جورج كتورة، المترجمون) لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- حسين فهم. (1986). قصة الأنثروبولوجيا: فصول في تاريخ الإنسان. الكويت: عالم المعرفة.
- سعاد علي شبعان. (2004). الأنثروبولوجيا الثقافية لأفريقيا. القاهرة: معهد البحوث والدراسات الإفريقية.
- عبد-الرحمان ف. (1992). الأنثروبولوجيا الاقتصادية: النظرية – المنهج – التطبيق. القاهرة: مطبعة الفجر الجديد.
- كريس هاين. (2014). الأنثروبولوجيا الاقتصادية: التاريخ والإثنوغرافيا والنقد. (عبد الله فاضل، المترجمون) الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
- كلود لفي-ستراوس. (1977). الأنثروبولوجيا البنيوية. (مصطفى صالح، المترجمون) دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي.
- كلود لفي-ستراوس. (1982). العرق والتاريخ. (حداد سليم، المترجمون) بيروت: المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع.

- كليفورد غيرتز. (2009). تأويل الثقافات. (محمد بدوي، المترجمون) بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- مارك أوجيه. (2008). الأنثروبولوجيا. (جورج كتوره، المترجمون) لبنان: دار الجديدة المتحدة.
- مجيد عارف. (1989). أنثروبولوجيا التنمية الحضرية. بغداد: مطبعة التعليم العالي.
- محمد الوقيدي. (2011). العلوم الإنسانية والأيدولوجيا. بيروت: دار الكتب العلمية.
- مصطفى تليوين. (2011). مدخل عام في الأنثروبولوجيا. لبنان: دار الفارابي.
- Barth, F. (2005). One Discipline, Four Ways: British, German, French, and American Anthropology. Chicago: University of Chicago Press.
- Durkheim, É. (1919). Les Règles de la méthode sociologique. Paris: Paris Librairie Félix Alcan.
- Lévi-Strauss, C. (2002). Race et Histoire: Race et Culture. Paris: Albin Michel .
- Lévy-Bruhl, L. (1963). L'âme primitive. Paris: Presses universitaires de France.
- Montagu, A. (1968). The Concept of the Primitive. New York: Free Press.
- Penniman, T. K. (1952). Hundred Years of Anthropology. London: Duckworth.